قوارب النجاة

في

سورة الكهف

نادى عبد العزيز



القرآن طوق النجاة

القرآن الكريم كلام الله تكلم به على الحقيقة، أنزله إلينا؛ ليكون لنا طوق النجاة من فتن الدنيا وأهوائها، فهذا القرآن كما قال r : "حَبلٌ ممدودٌ من السَّماءِ إلى الأرضِ".

لابد أن تستشعر دائمًا ـ وأنت في هذه الدنيا بمفاتنها وزخارفها ـ أنك تغرق فِي بَحْرٍ لُجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ، وأنِ السبيل الأوحدُ للنجاة من هذه الظلمات هو القرآن الكريم، الذي هو "حَبلٌ طرَفُه بيدِ اللهِ وطرَفُه بأيديكم فتمسَّكوا به فإنَّكم لنْ تضِلوا ولن تهلِكوا بعده أبدًا".

ينبغي أن يكون تعاملك مع القرآن كحال رجل كان في سفينة في وسط البحر، في غياهب الظلمات، فهبت عاصفة شديدة، جعلت الموج يرفع السفينة ويهوي بها، فتكسرت به وحده، صارت تتخطفه الحيتان الضخمة، وتلعب به الأمواج، وتخيفه الظلمات، وترعبه الأصوات والأنات، ويفزعه شبح الموت الذي يحاصره من كل مكان، حتى إذا أيقن بالهلاك، وقارب على الممات، إذ بحبلٍ متينٍ ينزل من السماء، ليكون بين يديه، فكيف يتعامل مع هذا الحبل؟

يقينا سيتمسك به.

إن فيه نجاته.

ولن يفرط فيه.

ولن يفكر إلا فيه.

كذلك العبد، لابد أن يتعامل مع القرآن بهذه الطريقة، وبهذا الشعور، وبهذا الإحساس، لابد أن يشعر أنه مضطر إليه، وأنه لا نجاة له إلا بالقرآن، ولا حياة له إلا بالقرآن، ولا نور له إلا بالقرآن.

فالله جل وعلا أنزل إلينا هذِا الحبلِ في وسط الفتن، بين الظلمات؛ لِيخرجنا من الظلمات إلى النور "كِتابٌ أنزلناهُ إِليْك لِتخرِجَ الناسَ مِنَ الظلُمَاتِ إِلى النورِ".

صراع المادية والإيمان

في ظل عجلة الحياة المادية التي يعيشها الإنسان وافتتان الكثيرين بالحضارة المادية، وتراجع الإيمان في القلوب، تأتي سورة الكهف لتكون أكبرَ ترياق للوقاية من مضارّها، فمن يتشرب معاني هذه السورة الكريمة، ويدرك مراميها، فإنه يقيناً يُحفظ من هذه الفتن.

لكن ما السبيل إلى تشرب معاني القرآن؟

التدبر والحفظ وكثرة التلاوة مع انتظامها، والشعور بالحرقة والاضطرار، فإن الباب يقيناً سيُفتح، والشيطان سيخنس، وستشرق شمس القرآن في قلبك بنور ربها. حتى قيل: "لن يتدبر معانيه، إلا من يعانيه".

لقد استطاع هذا العصر، عصر العولمة، عصر المادية البغيضة، والحضارة المزيفة الرديئة، أن يأخذ الإنسان من أشواق روحه، ومن عوالم غيبهِ التي يؤمن بها، إلى عالمٍ مادي بحت، فصار الإنسان يهيم على وجهه، لا يعرف له جهة، ولا يدرك له هدفا، صار الواحد منا هدفه الأول والأخير، أن ينال لقمة عيش، لقمة عيش، يسكن بها ألم جوعه ومرارة الحرمان في بطنه.

إنها وللأسف الشديد، حضارة رديئة، مدنية زائفة، وتقدمية بغيضة مَقيتة، منعت المسلمين أن يقوموا بالأسحار؛ لأن الأجساد متعبة، والقلوبَ قبل ذلك مرهقة.

ليست الأجساد وحسب هي التي أصابها الوهْن، وإنما الوهْنُ قد تسلل قبلُ في القلوب، حتى أشْربت حبَّ الدنيا، ونالها من العقيدة العجليةِ ما نالها، "وَأُشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ".

هذه الحضارة الرديئة حرمت المؤمنَ أن يجلسَ مع ربه جِلسة المتجند الصابر يذكر ربه "ذِكرًا كثِيرًا".

هذه العجلة المادية الرهيبة حرمتِ القلوبَ أن تنال غذاءها، حرمت القلوب من الروح: القرآنِ الكريم.

هنا يأتي دور سورة الكهف، ودور العزلة الشعورية، إياك أن تذوب في الباطل، إياك أن تذوب في هذه الحياة التي تسوقنا إلى التفكير المادي البحت المجرد من الشعور.

نعم، خالِط الناس، تحرك معهم في عجلة الحياة، ذُق مرارة العيش، شاهد بعينيك بؤس البؤساء وشقاء الأشقياء، واسمع بأذنيك أنات المتألمين وزفرات المتوجعين، لكن لابد أن تبقى مستقلا مهما خالطت جميع الطبقات، في الطرقات والأسواق، ينبغي أن تأوي إلى كهفك من حين لآخر، كهفك الخاص الذي صنعته أنت لنفسك، كهف الذكر، كهف القرآن، كهف الخلوة، كهف العبادة، كهف الطاعة، كهف الإيمان، كهف التوبة، كهف الدمعة، كهف الخشية، كهف التملق، كهف الاعتكاف، كهف الاعتراف لربك، كهف الأنس به .. من أجل ماذا؟!

من أجل أن ترى النور.

من أجل أن ينشر ربك لك من رحمته، ويهيئ لك من أمرك رشدًا.

من أجل أن ينقلك الله تعالى من حالة الاستضعاف إلى مرحلة القوة والتمكين.

هذا الكهف يقينًا سيُخرج منك أفضل ما فيك.

فأوقاتٌ كثيرة يحتاج أحدنا في حياته أن يخلوَ بنفسه في كهفه، ويغلق عينيه، ويوقف ذهنه عن التفكير في متاهات الحياة وكدرها المتتابع.

يحتاج لجمع قلبه على ربِّه، ثم النظر بعين قلبه إلى ذلك السفر البعيد القادم بلا ريبٍ عما قريب؛ حيثَ النعيم المقيم هناك، وأعلى ما فيه مِن التمتع بالنظر لوجه رب العالمين، أو هذا العذاب الدائم المخيف، وما به مِن ألم الاحتجاب عن رؤية رب العالمين.

يحتاج أحدنا ذلك بين الحين والآخر؛ ليعرف الطريق الصحيح ويأخذ القرار الصحيح في مسارات حياته الملهية الطاحنة.

في هذا الكهف الصغير يتذوق القلب حلاوة المناجاة، يتذوق طعم الأذكار، وطعم الصلاة، وطعم قراءة القرآن، حقا والله، إن لهذه الأطعمة لحلاوة لا يشعر بها إلا القلب المتصل بربه، القلب: الذي فرغ نفسه لاستقبالِ الوحي من السماءِ.

ربما تجدٍ في كهفك كل هذا وأكثر، تجد فيه البراءة والنقاءَ، والطهارة والصفاء، بعيدًا عن جمع المال، ومناكفة الأصحاب، ومناكفة الأسباب، أسبابِ العيش، مِن توفير الطعام والملبس، والشراب والمسكن، للزوجة، للأولاد، للبنات.

يقينًا ستكتشف أن كهفك الصغير هو المكان الأفضل لمناجاة ربك.

هذه هي القيمة الأساسية التي من أجلها سميت السورة باسمها.

قوارب النجاة

حين يزداد الظلام، وتتلبد سماء الواقع بالفتنِ وغيوم الشبهات، يحتاج الإنسان إلى كهف يحميه ويؤويه، يحتاج الإنسان إلى نورٍ يُبصر به الطريق، يحتاج إلى نورٍ يأتي على هذه الظلمات فيبددها، يبدد هذه الفتن، ويزيل تلك الشبهات.

كهف النور

عندئذ تأتي سورة الكهف، تلك السورة العظيمة لتكون هي النور التام الذي يبدد تلك الظلمات، فيقول ﷺ : "من قرأ سورة الكهفِ في يومِ الجمعةِ، أضاء له من النورِ ما بين الجمُعتين".

ويقول: "مَن قرأ سورة الكهفِ كانت له نورا يومَ القيامةِ، من مَقامِه إلى مكة".

هذا النور قد يكون معنويًّا يهديه ويمنعه من المعاصي والذنوب، وقد يكون نورًا حسيًّا يسطع يوم القيامة يهديه على الصراط المستقيم.

كهف العصمة

قال ﷺ : مَن حَفِظ عشرَ آياتٍ من أوَّلِ سُورَةِ الكهْفِ عصِم مِن الدَّجّالِ.

كهف السكينة

روى الشيخان: "كان رَجلٌ يقرأُ سورة الكهْف، وإلى جانبه حِصانٌ مَرْبُوطٌ بشطنين، فتغشّته سَحابَة، فجعلت تدنو وتدنو وجَعَلَ فرَسُه يَنفِر، فلمَّا أصْبَحَ أتى النبيَّ ﷺ فذكرَ ذلك له فقالَ: تلك السَّكينة تنزَّلت بالقرآن".

إذا سورة الكهف نور وعصمة وسكينة

نور ما بين الجمعتين، وعصمة وحماية من الدجال، وسكينة تتنزل من السماء في قلوب المسلمين.

بين الكهف والدجال

إن المتأمل لفكرة الدجال يجد أنها ترتكز على الوهم والتلبيس على الناس، وتمويه الحقائق والخداع، والاختلاف بين الظاهر والباطن، فتظن في الشيء عكس حقيقته، لذلك يأتي الدجال ومعه جنة ومعه نار، هكذا يريد أن يخدع الناس، ويموه عليهم الحقائق.

لكن مَنْ يعلم الحقيقة يرى أن ناره جنة، وجنته نار.

فأنى لنا أن ندرك تلك الحقيقة؟ وأنى نبصر ما وراء الأشياء؟

هنا يأتي دور سورة الكهف، التي تعطي المؤمن نورًا يميز به الحق من الباطل، "وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ".

سورة الكهف تعطيك النور الذي تبصر به مِن خلف الأشياء، لترى النار من وراء الجنة، وتدرك أن خلف نار الدجال جنة.

تستطيع من خلال هذا النور الرباني أن ترى ما خلف الشهوات من نار، حين قال النبي ﷺ: حُفَّتِ الجَنَّة بالمكارِه، وحُفَّتِ النَّارُ بالشَّهواتِ".

وقال: "حُجِبَتِ النَّارُ بالشَّهَواتِ، وحُجِبَتِ الجَنَّة بالمكارِه".

إن القلب المتعب، المنهك، الذي طحنته عواصف الحياة المادية، بعدما شغلته كثرة حاجات البدن، من أطعمة وأشربة، وجعلت بين القلب وربه حجاباً

سميكا صفيقاً، لن يبصر أبداً، أبداً، لن يبصر أبداً تلك الجنة من خلف المكاره، لن يرى الجوائز من خلف المعضلات، إن هذا القلب المكلس بالفتن . للأسف الشديد . لن يرى في طريق الجنة إلا المكاره والمنغصات، فتراه يفر من الجنة لخلل في بصره، وعمى في بصيرته.

تفتنه الزينة والشهوات، فتراه يتهافت على الدنيا الفانية، كتهافت الفراش على النار، ويعلق قلبه باللذة العاجلة.

تراه يفني نفسه من أجل دنيا حقيرة، ويحرص كل الحرص على إطالتها، والاستغناء بها عن الآخرة، مثل هذا القلب لن يبصرَ النار من خلف الشهوات، إلا حين يلسعه حرها، أو يكويه لهيبها.

هذا من ناحية أن سورة الكهف تعطيك نوراً تستطيع من خلاله أن تبصر الأشياء على حقيقتها، فتكشف خداع الدجال، وتراه على حقيقته.

ولكن، أنى لعبد ضعيف أن يصمد أمام الدجال، وأمام هذه الشهوات التي أطلت برأسها من كل مكان؟

إن هذ القلب يحتاج إلى سكينة كي يواجه بها تلك الفتنة العظيمة، ويثبت بها أمام الدجال.

فأنّى له بتلك السكينة؟

هنا يأتي أيضاً دور سورة الكهف، فإنها تسكِب في قلب قارئها الدعة والسكينة، وتفرغ فيه الأمن والطمأنينة، فلا يخاف دجالاً، ولا يخشى إعصار الدنيا بأسرها. فقد اختار لنفسه طريقاً يبساً، لا يخاف فيه دركا ولا يخشى.

الكهف والقصص الأربعة

تلتف الفتن من حولنا في كل وقت، ونوشك دائمًا على الوقوع فيها، لولا حفظ الله لنا ورحمته، ومن أعظم تلك الفتن:

فتنة الدين

بأن يفتن أحدنا في دينه، يؤذى فيبتعد عن دينه، أو يعبد الله فيُضطهد ويضيق عليه، ولا يستطيع أن يجهر بالعبادةِ.

تمثلت هذه الفتنة في الفتية الذين فتنوا في دينهم، ففرّوا من الملك الظالم فآووا إلى الكهف، فآواهم الله برحمته وسكينته.

العصمة من فتنة الدين

تكون بالصحبة الصالحة وتذكر الآخرة. "وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ ...".

فتنة المال

كأن يقصر أحدنا في حق ربه، بحجة أنه يسعى للرزق، أو يغتر بما لديه، ويطغى بما عنده.

وقد تمثلت هذه الفتنة في قصة صاحب الجنتين الذي آتاه الله كل شيء فكفر بأنعم الله، وأنكر البعث، فأهلك الله تعالى جنتيه.

العصمة من فتنة المال

تكون في فهم حقيقة الدنيا وتذكر الآخرة. "وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ وَكَانَ

اللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا (٤٥) الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا".

فتنة العلم

حين يظن أحدنا أنه حاز علمًا لم يسبقه إليه أحد، أو ينافسه فيه أحد، فيصاب بالعجب والغرور، أو يتعلم ما لا يفيد الناس، أو يستخدم علمه فيما يضرهم.

فليس العلم الذي يستأثر به الطغاة، فيستعبدون به الشعوب، ويقيمون دولتهم على أنقاض الضعفاء، هو العلم المطلوب أو المرغوب، بل هو الوبال والخراب، وأن هذه الدول والحضارات وإن سادت ردحًا من الزمان فلن يُكتب لها البقاء، وتلك سنة الله التي لا تتبدل ولا تتحول.

وقد تمثلت هذه الفتنة في قصة موسى u مع الخضر، حين ظن موسى أنه أعلم الناس، فوجهه ربه إلى الخضر، فذهب للقائه والتعلم منه، فلم يصبر على ما فعله الخضر؛ لأنه لم يدرك الحكمة في أفعاله وإنما أخذ بظاهرها فقط.

العصمة من فتنة العلم

تكون في الصبر على طلبِه، والتواضع وعدمِ الغرور به، ونفعِ النِاس بما تعلِمت، ونسبة العلم إلى الله. "قالَ سَتجِدُني إن شاء اللهُ صابِرًا ولا أعصِي لك أمْرًا".

فتنة السلطة

نعاني منها جميعًا، فمتى ظن أحدنا أنه قوي تسلط على من ظنه ضعيفًا، فيفرض عليه قوته، أو الحاكم حين يغتر بسلطانه فيظلم رعيته، ولا يعدل بينهم.

وقد تجسدت فتنة السلطة في قصة "ذي القرنين" والتي كانت سلطة الأرض في يده، ولكنها لم تخدعه.

كان لديه سلطة يستطيع بها أن يبطش أو يبطش أو يظلم أو يفتك، ولديه القوة والمال لتحقيق ذلك. لكنه أحسن استخدام هذه السلطة فيما ينفع الناس.

"ذو القرنين" يُذّكر أصحاب السلطة، أنه مهما امتلكت من أسباب القوة والسلطان في هذه الحياة، فأنت خاضع لسلطان الله وتحت مشيئته.

العصمة من فتنة الملك والسلطة

تكون في الإحسان، وإخلاص العمل لله، وتذكر الآخرة..

"قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا، الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا".

ثم يأتي ختام السورة ليسلط الضوء على العصمة الكاملة وقوارب النجاة من الفتن بالتوحيد، ونبذ الشرك، وإخلاص العمل، وتذكر لقاء الله والآخرة.

"قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا".

هذا هو الخيط الذي يجمع القصص الأربعة في سورة "الكهف" خيط الفتن: "الدين والمال والعلم والسلطة"..

وهي نفس الفتن التي يأتي بها الدجال في آخر الزمان.

الدجال سيفتن الناس في دينهم بما يُجريه الله على يديه من خوارق، فيسخر الشياطين ليتمثلوا بروح الأموات ليصدقه الناس.

قال r عن الدجال: "وَإِنَّ مِنْ فِتْنَتِهِ أَنْ يَقُولَ لأَعْرَابِيٍّ أَرَأَيْتَ إِنْ بَعَثْتُ لَكَ أَبَاكَ وَأُمَّكَ أَتَشْهَدُ أَنِّي رَبُّكَ؟ فَيَقُولُ: نَعَمْ. فَيَتَمَثَّلُ لَهُ شَيْطَانَانِ فِي صُورَةِ أَبِيهِ وَأُمِّهِ فَيَقُولَانِ يَا بُنَيَّ اتَّبِعْهُ فَإِنَّهُ رَبُّكَ".

وكذلك معه فتنة المال بأن يأمر السماء أن تمطر فتمطر، ويأمر الأرض أن تنبت فتنبت، ويحول صحراء قاحلة إلى جنة خضراء، فيطيعه الناس.

وكذا يحمل فتنة العلم بأن يبهر الناس بما يحمله من علم وأخبار.

وفتنة السلطة فيقهر الناس بقوته وهيمنته على أجزاء كثيرة من الأرض حتى يفتنهم عن دينهم.

فتأتي سورة الكهف لتكون لنا قارب النجاة من فتن الدجال، ويكفينا قوله r: "فَمَنْ أَدْرَكَهُ مِنْكُمْ، فَلْيَقْرَأْ عَلَيْهِ فَوَاتِحَ سُورَةِ الْكَهْفِ".

أجواء النزول

السورة مكية، نزلت على النبي r وهو وأصحابه في حالة شديدة من الضعف، من العذاب، من التنكيل، تفنن المشركون في صبّ أنواع العذاب على النبي r وأصحابه، في محاولة يائسة بائسة لثني النبي r عن الاستمرار في دعوته المباركة.

وفي تلك الأثناء، وفي هذه الأجواء الغائمة من المحن والتعذيب والتنكيل تنزل سورة الكهف لتمكن الصحابة من مواجهة الفتن، نزلت عليهم لتؤكد أن تلك الفتن مهما قويت ومهما كان فيها من جوانبَ مؤلمة، فإنها ستزول، وذلك يكمن في تأكيد التوحيد وترسيخ التوحيد في قلوب المؤمنين.

كلما ازدادت قوة التوحيد في القلب، وإخلاص العمل وتخليصه لله عز وجل، كان ذلك عصمة للإنسان من الزلل، والتمسك بهذا الدين، والنجاة من كل الفتن.

نزلت سورة الكهف قُبيل الهجرة إلى الحبشة، حينها فهم الصحابة أن السورة إنما جاءت لتؤهلهم لما هو قادم من تضحيات الفرار بالإيمان الذي يجب أن يكون شاغلهم الأول قبل التمسك ٍبالأرض والأهل والوطن.

فالمؤمنون في مكة يعيشون ظرفا مشابهًا للظرف الذي عاشه فتية الكهف، من الاضطهاد وغياب الأمل، لذا جاءت السورة لترسخ معنى وجود إرادة قاهرة لا يعجزها شيء ي التي تتصرف في الكون، وأن على المؤمنين أن يثقوا في ربهم، وألا يقفوا عند ظواهر الأشياء، فالأمور تجري بقدر الله الغالب، الذي يجب أن يعتصموا به دومًا.

لذا لعبت السورة وقت نزولها دورًا عظيمًا في التأهيل لما هو قادم من عظائم وشدائد. "وَيُهَيِّئْ لَكُمْ مِنْ أَمْرِكُمْ مِرفَقًا". هذه التهيئة كان الصحابة أحوج ما يكونون إليها في ذلك الوقت العصيب.

جاءت السورة لتحدد أسباب الفتن، وأجواء المحن في كل زمان، فتنة الدين وفتنة المال وفتنة العلم وفتنة الملك والسلطان.

وكذلك حددت الخطوات التي يمكن أن يسير عليها الإنسان ليتخلص من هذه الظلمات، ظلمات الفتن. فكانت بحق . هذه السورة العظيمة . نورًا يضيء للإنسان في طريق الحياة، نورًا يضيء له في طريق الفتن المتلاطمة، حين يزداد السواد فيها، حتى "إِذا أَخرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا".

إذا نسيت أو غفلت عن الله . وهذا ينبغي ألا يكون . ستأتي سورة الكهف، لتعدل مسارك من جديد، لتقوم بربطك بهذا القرآن، لتقوم بشدي من جديد لوضعي على الطريق الصحيح، الذي ينبغي ألا أحيد عنه.

سورة الكهفِ من السور العظيمة، صح عن ابن مسعود t أنه قال: "سورة الإسراء، والكهْفِ، ومَرْيَمَ مِن العِتاقِ الأُولِ، وهُنَّ من تِلادي".

مِن العِتاقِ الأُولِ، يعني: أنَّ نُزولَ هذه السُّوَرِ مُتقدِّمٌ، أو أنَّها مِنَ المُفضَّلاتِ، والعربُ تجعلُ كلَّ شيءٍ بلغ الغاية في الجودة عتيقا.

يُريدُ تفضيلَ هذه السُّورِ؛ لما تضمَّنَ مُفتتحُ كلٍّ منها من أمرٍ غريبٍ وقَعَ في العالم خارقا لِلعادةِ، وهو الإسراءُ، وقصَّة أصحاب الكهفِ، وقصَّة مريمَ ونحوُها، وأنَّهنَّ مِن تِلادِه، يعني: مِن السُّورِ التي حَفِظَها قديمًا، والتَّليدُ: القديمُ.

المحور الموضوعي لسورة الكهف

تصحيح العقيدة، وتصحيح منهج النظر والفكر، وتصحيح القيم بميزان العقيدة، لا بميزان المال والزينة.

فأما تصحيح العقيدة فيقرره بدؤها وختامها .

في البدء: "الحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا (١) قَيِّمًا لِيُنْذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِنْ لَدُنْهُ وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا (٢) مَاكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا (٣) وَيُنْذِرَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا (٤)".

وفي الختام: "قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَمَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا (١١٠)".

وهكذا يتناسق البدء والختام في إعلان الوحدانية وإنكار الشرك، وإثبات الوحي، والتمييز المطلق بين الذات الإلهية وذوات المخلوقين.

ويلمس سياق السورة هذا الموضوع مرات كثيرة في صور شتى:

في قصةِ أصحاب الكهف يقول الفتيةِ الذينَ آمنوا بربهم: "رَبُّنَا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَنْ نَدْعُوَ مِنْ دُونِهِ إِلَهًا لَقَدْ قُلْنَا إِذًا شَطَطًا".

وفِي قصة الجنتينِ يقول الرجلُ المؤمن لصاحبه وهو يحاوره: " أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلًا (٣٧) لَكِنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا".

وفِي مشهد من مشاهد القيامة يقول الله: " نَادُوا شُرَكَائِيَ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ مَوْبِقًا".

أما تصحيح منهج الفكر والنظر فيتجلى في استنكار دعاوى المشركين الذين يقولون ما ليس لهم به علم، والذين لا يأتون على ما يقولون ببرهان.

وفي توجيه الإنسان إلى أن يحكم بما يعلم ولا يتعداه، وما لا علم له به فليدع أمره إلى الله.

ففِي مطلع السورة: "وَيُنْذِرَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا (٤) مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِآبَائِهِمْ ".

والفتيةِ أصحابِ الكهف يقولون: " هَؤُلَاءِ قَوْمُنَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لَوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِمْ بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ" وعندما يتساءلون عن فترة لبثهم في الكهف يكلون علمها لله: "قَالُوا رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ" ثم ينكر على من يتحدثون عن عددهم

رجمًا بالغيب: "سَيَقُولُونَ ثَلَاثَةٌ رَابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًا بِالْغَيْبِ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِمْ مَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَاءً ظَاهِرًا وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِمْ مِنْهُمْ أَحَدًا".

وفي قصة موسى مع العبدِ الصالح عِندما يكشف له عن سر تصرفاته التي أنكرها عليه موسى يقول: "وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي" فيكل الأمر فيها لله .

فأما تصحيح القيم بميزان العقيدة فيَرِدُ في مواضعَ متفرقة، حيث يرُدّ القيم الحقيقية إلى الإيمان والعمل الصالح، ويُصغّر ما عداها من القيم الأرضية الدنيوية التي تبهر الأنظار: فكل ما علىٰ الأرضِ من زينة إنما جُعِل للابتلاء والاختبار، ونهايته إلى فناء وزوال "إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا (٧) وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا". وحِمى الله أوسع وأرحب ، ولو أوى الإنسان إلى كهف خشن ضيق.

والفتية المؤمنون أصحابِ الكهف يقولون بعد اعتزالهم لقومهم: "وَإِذِ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ فَأْوُوا إِلَى الْكَهْفِ يَنْشُرْ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيُهَيِّئْ لَكُمْ مِنْ أَمْرِكُمْ مِرْفَقًا".

ثم يوجَّه الخطابُ إلى النبي r ليصبّر نفسه مع أهل الإيمان؛ غير مبال بزينة الحياة الدنيا وأهلها الغافلين عن الله "وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا".

وقصة الجنتين تصور كيف يعتز المؤمن بإيمانه في وجه المال والجاه والزينة، فيقول له: " أكفرْت بالذي خلقك من ترابٍ ثمَّ من نطفةٍ ثمَّ سوَّاك رجلا (٣٧) لكنَّا هو الله ربِّي ولا أشرك بربِّي أحدا".

وعقِب القصة يضرب مثلا للحياة الدنيا وسرعة زوالها بعد ازدهارها: "واضرب لهم مثل الحياة الدُّنيا كماء أنزلناه من السَّماء فاختلط به نبات الأرض فأصبح هشيمًا تذروه الرِّياح وكان الله على كلِّ شيءٍ مقتدرًا".

ويعقّب عليه ببيان للقيم الزائلة والقيم الباقية: "المالُ والبنون زينة الحياة الدُّنيا والباقيات الصَّالحات خيرٌ عند ربّك ثوابًا وخيرٌ أملا".

وذو القرنين لا يُذكر لأنه ملك، لكن يذكر لأنه أحسنَ العمل، وحين ينهي السد يرد الأمر لله لا لقوته البشرية: "قالَ هذا رحمةٌ من ربِّي فإذا جاء وعد ربِّي جعله دكَّاء وكان وعد ربِّي حقًّا".

وفي نهاية السورة يقرر أن أخسر الخلق أعمالًا، هم الذين كفروا بآيات ربهم ولقائه؛ وهؤلاء لا وزن لهم ولا قيمة وإن حسبوا أنهم يحسنون صنعًا: "قلْ هل ننبّئكم بالأخسرين أعمالا (١٠٣) الذين ضلَّ سعيهم في الحياة الدُّنيا وهم يحسبون أنَّهم يحسنون صنعًا (١٠٤) أولئك الذين كفروا بآيات ربِّهم ولقائه فحبطت أعمالهم فلا نقيم لهم يوم القيامة وزنا (١٠٥)".

هدايات الآيات

الآية الأولى

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُ عِوَجًا

الحمد هو ذكر المحمود بصفات الكمال، والله عز وجل هو المستحق وحده للحمد دون سواه، هو المحمود أعطى أو منع، فإنك تحمده إذا أعطاك ووهبك من نعمه، وتحمده إذا أصابتك مصيبة أو بلية، وقد حمِد نفسه بنفسه من قبل أن يحمده أحد من خلقه، فهو الحميد لنفسه أزلاً، وبحمد عباده له أبداً، هو الحميد المطلق الذى لا حميد سواه، المحمود على كل حال.

افتتحت الكهف بقوله: "الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ الْكِتَابَ"، ثم ذُكرت الفتن بعد ذلك، "فتنة الدين، وفتنة المال، وفتنة العلم، وفتنة الملك والمنصب والسلطان"، يدل ذلك على أن من تمسك بهذا الكتاب، عُصم من كل هذه الفتن. فالقرآن سبيل النجاة من الفتن.

ما من فتنة مهما كانت، في القديم أو الحديث، إلا وفي القرآن مفتاح النجاةٍ منها، بدون القرآن، وبدون اللجوء للقرآن العظيم، لا يمكن أن يكون هناك عصمة من الفتن.

"الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ الْكِتَابَ": ما من نعمة في هذا الكون الواسع، أعظم من هذا الكتاب العظيم، فو الله إنّ إنزال القرآن لمن أعظم ما يستحق أن يُحمَد اللهُ عليه، فقد حمد سبحانه ذاته العلية لأجل هذه النعمة.

"الحَمْدُ لِلهِ الَّذِي أنزلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ الكِتَابَ": النعم الدينية أولى بالحمد والشكر مِن النعمِ الدنيوية؛ لأنْ الأولى ترضي ربك والثانية ترضي نفسك.

"الحَمْدُ لِلهِ الذي أنزلَ علىٰ عبْدِهِ الكِتابَ": نزول هدايات الكتاب على قلبك، بقدر تذللك وخضوعك وعبوديتك لربّك. حين تصير لله عبداً، يصير لك ربًّا، حينها تتنزل هدايات القرآن على قلبكِ.

"الحَمْدُ لِلهِ الَّذِي أنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ الكِتَابَ": فيها تشريف للنبي من وجوه:

لم يقل: الحمد لله الذي أنزل الكتاب. بل قرن ذكره r بذكر نعمة إنزال الكتاب.

ثم قدّم ذكر النبي r على ذكر القرآن، تشريفًا واصطفاءً وإعلاء لمنزلته r.

ثم وصفه بالعبودية، فقال في أولِ الإسراء: "سُبْحَانَ الذِي أسْرَى بِعَبْدِهِ"، وقال في أول الكهف: "الحَمْدُ لِلهِ الذِي أنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ". تلك العبودية هي أعلى وأعظم مقام للعبد عند ربه.

قال تعالى: "وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا"..

العِوَج: يعني الاختلاف والاختلال والانحراف عنِ الحق، والزيغ إلىٍ الباطل.

"أفَلَا يَتَدَبَّرُونَ القُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اختلافا كثيرًا".

والله، لو لم ينزل لنا قرآن لأصبحت حياتنا كلها عوجًا.

"وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا".. ليست النعمةِ هي مجردِ إنزال القرآن فحسب، وإنما اكتملت بأنه تعالى لم يجعل له عِوجًا، "لَا يَأتِيهِ البَاطِلُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ"، "إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ".

"وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا".. لا مكان للاعوجاج في حياة أهل القرآن، به يقيمون حياتهم من غير انحراف.

"وَلَمْ يَجْعَلْ له عِوَجًا".. أهل القرآنٍ لن تجد في كلامهم اضطرابًا، ولا في أفعالهم تناقضا، ولا في تصوراتهم ارتباكا، بل هو الاتساق التام مع النفس، والمجتمع، والكون كله.

وقديمًا قالوا:

"مَنْ جعلِ القرآن له "منهاج" سَلِمت حياته من "الاعوجاج".

"وَلَمْ يَجْعَلْ له عِوَجًا".. اعرض كل اعوجاجاتك ومخاوفك ونقاط ضعفك على القرآن بصدق، وهو كفيل بإقامتها. فالقرآن بطبيعته يقوّم حين تنحرف الأهواء بالإنسان عن المسار الصحيح. الفتن تحاول أن تحرِف الإنسان عن طريقه الصحيح، فيأتي القرآن ليقوّمه، ويضعه على الطريق المستقيم، ولذا كان واجبًا عليك أن تقرأ سورة الكهف كل جمعة، لتضيء لك الطريق، وتبدد لك الظلمات.

قال: "وَلَمْ يَجْعَلْ له عِوَجًا".. ولم يقل: "ولم يجعل فيه عوجًا".

فالقرآن ليس فيه قابلية للانحراف والاعوجاجِ، فكلمات الله غير قابلة للاعوجاج والتحريف. "وَجَعَلَ كلِمَةَ الذِين كفرُوا السُّفلىٰ وَكلِمَةَ اللَّهِ هِيَ العُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ".

الآية الثانية

قَيِّمًا لِيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لدُنهُ وَيُبَشِّرَ المُؤْمِنِينَ الذِينَ يَعْمَلون الصَّالِحَاتِ أن لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا

ذكرَ نفيَ العَيبِ أولًا، فقال: "وَلَمْ يَجعلْ له عِوَجًا"، ثمَّ أثبت الكمال ثانيًا، فقال: "قيّمًا". وهذه قاعدة جليلة، مضمونها: «التَّخلية قبلَ التَّحليةِ»، يعني: قبل أن تُحَلِّيَ الشّيءَ أخلِ المكان عمَّا ينُافي التحَلِّيَ، ثمَّ حلّه بعد ذلك.

"قيِّمًا" هذا الكتاب قيّم أي مهيمن على ما سواه من الكتب، كاشف تحريفها، ومؤيد لما بقي من الحق فيها.

"قيِّمًا" وصف الله القرآن بأنه "قيمًا" أي مستقيمًا لا ميل فيه ولا زيغ ولا انحراف؛ إشارة الى أن التمسك بالقرآن من أعظم أسباب الثبات على الحق وعدم الزيغ عنه.

فالقرآن إذاً قيّم على غيره غالبه ومهيمن عليه، وقيّم في نفسه فلا ميل فيه ولا زيغ ولا انحراف، وهو سائر بالمؤمنين إلى حيث يصبحون ذوي بأس شديد، ولن يبقوا على ضعفهم البادي وقت النزول، وقصة ذي القرنين في أواخر السورة مثال على ذلك.

"لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ" ...

من أهم حكم إنزال القرآن النذارة، فلا تُلغها من قاموسك بحجة: جمال الإسلام، وروعة الدين، ورحمة رب العالمين.

"لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ" ...

وصْفُ القرآنِ بالبشارة والنذارة والجمعُ بينهما منهج قرآني فيه فائدة عظيمة للمربين ليسلكوا هذه السبيل، فالإنسان يحتاج إليهما، وفيهما صلاح حاله.

هذا منهج القرآن مع الناس، يعاملهم بالبأساء والضراء تارة، فإذا لم ينتفعوا نقلهم إلى الراحة والرخاء وأنواع الآلاء والنعماء تارة.

وهذا كما يفعله الأب المشفق بولده، يخاشنه تارة ويلاطفه أخرى، يحذره مرة، ويبشره مرة؛ وهذا كله طلبًا لصلاحه وإصلاحه.

قال تعالى: "وَيُبَشِّرَ المؤمِنينَ الذِينَ يَعْمَلونَ الصَّالِحَاتِ"..

لابد مع الإيمان من العمل الصالح، لا يكفي الإيمان وحده، بل لا بد من عمل صالح؛ لكي ينالوا " أجْرًا حَسَنًا مَاكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا"، وهو الجنة.

ولهذا قيل لبعض السلف: أليس مفتاح الجنة لا إله إلا الله؟ يقصد فمن أتى به دخل؟ قال: بلى، ولكن هل يَفتح المفتاح بلا أسنان؟

الثالثة

"مَاكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا"

واللهِ، لو كانت الدنيا من ذهب يفنى، والآخرة من خزف يبقى، لكان الواجب أن يُؤثَر خزف يبقى، على ذهبٍ يفنى.

فكيف والآخرة من ذهب يبقى، والدنيا من خزف يفنى؟!

الرابعة

"وَيُنذِرَ الذِينَ قالوا اتخذ الله وَلَدًا"

بعد الحديث عن القرآن وأهمية اللجوء إليه، بدأت السورة تركز على قضية التوحيد، لماذا؟ لأن أعظم جريمة يرتكبها الإنسان في حق نفسه وفي حق الكون كله، أن يدعي أن لله ولدًا، أن يدعي أن لله شريكا في ملكه سبحانه وتعالى، أكبر جريمة هي نكران التوحيد.

منهج الدعوة يجب أن يبدأ بالأهم وهو التوحيد، فمع أنه لا يخلو أي مجتمع من المعاصي والمنكرات، إلا أن جميع الأنبياء بم بدأوا دعوتهم؟ بدأوا بالتوحيد ونبذ الشرك.

سر هذا المنهج (البدءِ بالتوحيد) أن الإصلاح في أحد جوانب الحياة إذا لم يبدأ بالتوحيد فهو عسير أولا، وغشٌّ وخداعٌ للمدعوين ثانيًا.

بعض الجماعات لا تهتم بالدعوة إلى التوحيد وقضايا العقيدة، خوفا من خسارة المدعوين، فأي ربح بعد ذلك؟!

فكلمة التوحيد قبل توحيد الكلمة؛ لأن توحيد الكلمة على غير التوحيد لا فائدة فيه ولا منفعة، بل يضر المسلمين، ويهلكهم في وديان الضياع والشتات.

الآية الخامسة

"مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِآبَائِهِمْ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِنْ يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا"

"كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ" تخيل: فمٌ صغير، تخرج منه كلمة كبيرة "تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا".

فما أعظمِ الكلمة وما أخطرِها!

"كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ" بعض الناس يُطلق الكلام على عواهنه دون النظر في عواقبِ كلامه، وربِ "كلمة" أكبر من صاحبها.

"كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ" بكلمة واحدة أطلقها أحدهم كذبًا، "اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا" ضل بها أكثر أهل الأرض، وماتوا عليها، فاحذر من هذا الفم الصغير أن يُخرج كلمة توبق عليك دنياك وآخرتك.

فالواجب على من أراد الكلام، أن ينظر في منطوقه قبل أن يتكلم، هل هذه الكلمة سترضي الله أم ستغضبه؟ ستكتب في حسناتي أم في سيئاتي؟ يسرني أن أراها يوم القيامة، أم ستكون خزيًا وندامة؟

الآية السادسة

"فلعلك بَاخِعٌ نفسَكَ على آثارِهِمْ إن لم يُؤمِنوا بِهَذا الحَدِيثِ أسفا"

قبل الحديث عن فتنة الدين، تأتي هذه الآية في وقفة رائعة لتسلية النبي r.

النبي r كان يحمل من الإنسانية ومن معاني الحنان والعاطفة، ما لو اجتمعت له الأمة كلها ما بلغت ولا نصيفه، فكان في غاية الحنان، وفي غاية الرأفة والشفقة علىِ قومه.

"فلعلك بَاخِعٌ نفسَكَ" مع أن القوم كانوا يسومونه وأصحابه سوء العذاب، القوم تفننوا في إنزال شتى أنواع التنكيل والإهانة، ما تركوا وسيلة إلا وسلكوها في محاولة خبيثة لثنيه r عن دعوته، ولكن هذا النبي العظيم، الذي ما أرسل إلا رحمة للعالمين، الذي وصفه ربه عز وجل فقال: "وَإنك لعَلى خلق عَظِيمٍ"، هذا القلب العظيم كانِ يفيض بِالشفقة والحنان على ِقومه، فجاءت الآية: "فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نفسَكَ على آثارِهِمْ إِن لمْ يُؤمِنوا بِهَذا الحَدِيث أسَفا"..

يا محمد، لا تهلِك نفسك حزنا وغمًّا على هؤلاء المشركين لأنهم لم يؤمنوا بالله، وبهذا القرآن (بِهَذا الحَدِيث)، بل أبلغهم أنت ما أوحي إليك من ربك، وادعهم إلى الله، فهذه مهمتك، وليسِ عليك هداهم، "مَّن اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفسِهِ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا". "فلا تَذهَبْ نفسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ".

"إِنْ لم يُؤمِنوا بِهَذا الحَدِيثِ أسَفًا" الأسف هنا والحزن الشديد من النبي r على قومه، ليس لعدم إيمانهم به أو اتباعه كشخص، أبداً، الأسف والحزن على أنهم لم يدركوا عظمة القرآن الكريم، الأسف على قومه هنا أنهم لم يدركوا نور القرآن.

وهذه لفتة رائعة لكل إنسان يدعو إلى طريق الحق، لفتة في غاية الجمال لكل إنسان يدعو إلى طريق ربه بالحكمة والموعظة الحسنة.

"إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا" حين ينحاز الناس عن طريق الحق، عوضًا عن أن تشعر بنوع من الحقد عليهم، أو الغيظ منهم، اشعر بالرأفة لهم، لمن يخالف هذا الدين، اشعر بمشاعر العطف والشفقة على الخسارة العظيمة التي خسرها هؤلاء حين أعرضوا عن هذا الكتاب العظيم، عوضًا عن الشعور بأي مشاعر من الغيظ أو الغضب عليهم، أو شعور الانتقام منهم.

"فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ" أي قلب هذا الذي يتسع للحزن على من فتنوا المؤمنين والمؤمنات في مكة، وآذوه كل أنواع الأذى، وحاربوه وناصبوه العداء وقتلوا من المسلمين ما الله به عليم، ومع ذلك يرجو لهم الهداية وصلاح الحال، ويتقطّع قلبه الشريف ﷺ حسرة عليهم، وكأنه يبحث عن وسيلة يهدي بها قلوبهم، ويؤثر بها على عزائم إرادتهم الخفية. فذكره ربه عز وجل بأنه لا يملك لذلك سبيلا، فقال سبحانه: "إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ".

"فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ عَلَى آثَارِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا"

إن سعة الصدر وانشراحه أعظم نعمة امتن الله بها على نبيه ﷺ فقال: "أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ"، ألم نفسح ونبسط ونوسّع لك يا محمد صدرك؟ حتى وسع مناجاة الحق، ودعوة الخلق، بما أودعنا فيه من الحكمة والإيمان والنبوة، وأزلنا عنه ضيق الجهل.

ثم تأتي الآية فتبين حقيقة الحياة، فيقول تعالى:

الآية السابعة

"إِنا جَعَلنا مَا على الأَرْضِ زِينة لهَا لِنبْلوهمْ أيُّهُمْ أحسَن عملَا"

هذه خطوة أخرى من خطوات العصمة والخروج من الفتن.

الوسيلة الأولى للخروج من الفتن: التمسكُ بالقرآن الكريم واللجوءُ إليه، والاحتماءُ بآياته الكريمة.

الوسيلة الثانية: التوحيد، وتنقيته المستمرة أولا بأول ويومًا بعد يوم من كل شائبة تشوبه، وتعاهد التوحيد، وتخليصه من كل شيء سوى الله جل وعلا.

الوسيلة الثالثة للحماية من الفتن: إدراكُ حقيقة الدنيا، وأنها مجرد زينة، وأنها فانية، ووضعِ هذِه الحقيقةِ دائمًا نصبَ عينيك.

"إِنَّا جَعَلنا مَا عَلى الأَرْضِ زِينة" وأنا ألاحظ الفتن، أضع قيمة الدنيا أمام عيني، أراها بحجمها الحقيقي الذي لا يتعدى جناح بعوضة، بل لا يصل إلى أن يكون مثله، هذا ما فعله أصحاب الكهف، حينما ضحوا بكل ما تمتعوا به، وتركوا الدنيا بزينتها وزخارفها وراء ظهورهم؛ ولجئوا إلى الله؛ لأنهم تعلموا الدرس أن الدنيا وما عليها إلى زوال.

وأنا . أيضًا . أعيش بتلك القاعدة الربانية، حين أرى السماء ملبدة بالفتن والخطوب والمحن، ومهما عظمت البلايا فإن هذه الدنيا في نهاية الأمر ليست شيئًا يذكر، ولا قيمة لها، ولا وزن لها عند الله، الله سبحانه وتعالى بقدرته المطلقة سيجعلها صعيدًا جرزًا.

"إِنَّا جَعَلْنا مَا عَلى الأَرْضِ زِينة" فكل ما تراه عينك من بهرجة ومفاتن ي مجرد زينة، زينة، والحقيقة أنها ابتلاء، والدنيا إلى زوال وفناء.

"لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا"

إن الله جعل الدنيا حلوة خضرة، لينظرٍ ماذا يعمل الناس، وجعل ما على هذه الأرض من نبات وجمادٍ وحيوان، زينة لها ولأهلها ليختبرهم أيهم يحسن التعامل معِها، والعمل فيها وفقا لما حدده الله سبحانه وتعالى.

"لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا"

تكررت كلمة "زينة" فِي الكهف ثلاث مرات، "إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً" "الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ" ، "وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ".

وفي المقابل تكررت مادة "رشداً" أربع مرات، هذا الرُّشد هو الذي يجعلك تبصرِ الزينةِ على حقيقتها، فلا تنخدع ببريقها، ولا تعلق قلبك بها.

"لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا" هذه هي الغاية من وجودِ الأرض وما عليها، هذه هي الغاية من وجودنا هنا: "لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا".. لِيَخْتَبِرَهُمْ أَيُّهُمْ يُحْسِنُ التعامل مع هذه الزينة على وفق مراد الله عز وجل، ووفقا لما يحبه الله سبحانه ويرضاه.

"أَحْسَنُ عَمَلًا"

يعني أخلصه وأصوبه، والخالصُ: أن يكون   ، والصوابُ: أن يكون على السنةِ.

إن المتدبر لسورة الكهف، يستطيع بسهولة أن يُحسن التعامل مع هذه الدنيا، يستطيع أن يتعلم الإخلاص، يتقن فن الإخلاص في كل عمل مهما كان هذا العمل متواضعاً؛ لأن الله لا ينظر إلى حجم العمل الذي أقوم به، ولا إلى حجم الصدقة التي أقدمها لخلقه سبحانه، ولا إلى عدد الركعات التي أركعها بين يديه سبحانه، بل ينظر إلى شيء آخر، ينظر إلى القلب الذي يتوجه إليه.

لا ينظر إلى حجم الصدقة، ولكن ينظر إلى حال القلب الذي أخرجها.. لا ينظر إلى عدد الركعات التي تركعها، ولكن ينظر إلى الدمعة التي انسكبت من خشيته في ظلام الليل وأنت واقف وحِدك بين يديه تتملق ربك.

وتأمل قوله: "أيُّهم أحسَنُ عمَلا" ولم يقلْ: "أكثر عملا"؛ لأن العبرة بالأحسنِ لا بالأكثر، فمن وُفِق لتحسين عبادته وجوّدها لله جل وعلا، فقد ألهم الخيرَ كله، وأعطي الخيركله.

إذا هذه اللقطة في الآية تقرِر قاعدة ربانية وهي: "رُبَّ عملٍ قليل، بصدق كثير فاق عند الله. وهو كذلك. عملا كثيراً بصدق قليل".

يعني أن العمل اليسير المِوافِق لمرضاةِ الرب وسنة رسوِله r أحبَّ إلى اللِه تعالى من العمل الكثيرِ إذا خلاِ من الإخلاص؛ فهو سبحانه وتعالى إنما خلق السِمواتِ والأرضِ والموت والحياة، وزيَّن الأرضِ بما عليها؛ ليبلوَ عباده أيُّهم أحسنُ عملا، لا أكثرُ عملا . فالعِبرة بالأحسَنِ لا بالأكثرِ.

الآية الثامنة

"وَإِنا لجاعِلون مَا علَيْهَا صَعِيدا جرُزا"

جاءت هذه الآية لتسلي قلوب المؤمنين، وتصبر قلوب المبتلين، مهما أصابتك الفتن، ونزلت بك البلايا، فإن الدنيا بكل ما فيها: كنوزها ومبانيها، جواهرِها وأراضيها، آلامها وأحزانها، أفراحها وأتراحها، ستصبح يومًا ما "صَعِيدًا جُرُزا".

فلا عليك، لا عليك، لا تنشغل بالخطوب بما أنت عليه، لا تشغلك المحن والآلام عن إعداد العدة لتحسين عملك، لملاقاة ربك.

"وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا" لا تنشغل عن الهدف الذي خلقت من أجله؛ فكل الذي فوق التراب تراب، كل ما حولك من زينة وبهرجة ومغريات وفتن يومًا ما سيصير ترابًا.

"وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا" هذه الآية تقرر أن أقل عملٍ يُرضِي ربَّك أعظمُ مِن كُثبانِ الترابِ التي ستتحول إليها هذه الحياة.

"وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا" كل ما في هذه الحياة من زينة وبهجة وجمال، سوف يزول ولن يبقى لك إلا صالح الأعمال، فلنلتمس نعيمًا لا يحول ولا يزول، ولنطلبِ نعيمًا لا يحول ولا يزول.

"وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا" واللفتة الجميلة في الآية: أنِ الذي يستطيع في لحظةٍ واحدة أن يغيِّرَ معالِمَ الكون، فيَجْعَلُ الأرضَ وما عَلَيْهَا خرابًا يبابًا، ترابًا أجْرَدَ لا نبات فيه، بعْد أن كان خضرًا نضرًا، مُبْهجًا، تسَرُّ بهِ العُيُون، الذي يفعل ذلك كله في لحظة واحدة، قادر على تفريج همومك كلها بكلمة واحدة، أن يقول لها كن فيكون.

فلا تبخل عن نفسك، والجأ إلى ربك، وتوكل عليه، وانطرح بين يديه، بث له شجونك، واشك له همومك؛ فإنه أقرب إليك من حبل الوريد.

الآية التاسعة

"أمْ حَسِبت أن أصْحاب الكهْفِ والرَّقِيمِ كانوا مِن آيَاتِنا عجبًا"

"كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا" سبحان الله! إيمانهم الصادق بآيات الله، جعلهم من آياتِ الله.

"أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ" جاء في بعض التفاسير، أن قريشًا استعانت باليهود في إحراج النبي r ، فأخبروهم أن يسألوه بعض الأسئلة، ومن هذه الأسئلة، فتية، كانوا في غابر الزمن، تركوا قومهم، ولهم حديث عجيب.

هؤلاء الفتية، تعرضوا لأخطر محنة يمكن أن يتعرض لها الإنسان، وهي فتنة الدين، نشئوا في مجتمع يهيمن فيه الشرك، أراد المجتمع أن يُثني هؤلاء الفتية عن التمسك بالدين، فنزلت هذه الآية لتسلي النبي r ؛ فإن قصته مع قومه تشبه قصة هؤلاء الفتية مع قومهم، وقد ثبتوا، فاثبت مثلهم يا محمد.

لقد تعرض رسول الله r وأصحابه لفتنة الدين، وفتنوا في دينهم بالترغيب والترهيب، وعُرضت عليهم الأموال والمناصب والجاه والسلطان، وتعرضوا للعذاب والحصار والسجن والقتل والنفي من الأرض، وتركوا الأهلِ والأولاد، وثبتوا على ذلك، وعُرضت عليهم أنصاف الحلول بحيث يُعبَد الله عامًا وتعبَد آلهتُهم عامًا، فما كان إلا الثبات على الدين الحق رغم الحصار والمعاناة والدماء.

وهاجروا بدينهم وفروا به من الظلم والكفر والطغيان، وبحثوا عن كهف النجاة، فهاجروا إلى الحبشة، ثم إلى المدينة تاركين كل شيء يتعلق بحياتهم منذ نعومة أظفارهم، وفارقوا القريب والبعيد ليحافظوا على دينهم وعقيدتهم، ولم يكتفوا بذلك بل ساحوا في الأرض يدعون الناس ويبلغونهم دين الله، وواجهتهم الكثير من العقبات والصعاب فصبروا وثبتوا.

الآية العاشرة

"إذ أوَى الفِتيَة إلى الكهْفِ فقالوا رَبنا آتِنا مِن لدنك رَحمة وَهيِّئ لنا مِن أمْرنا رَشدا"

"إِذ أَوَى" وجدوا انحراف قومهم عن الدين بعبادتهم الأصنام والتعلق بالدنيا ونسيان الآخرة، حاولوا إصلاح واقعهم، ما استطاعوا، حاولوا التغيير، ما استطاعوا، فتركوا المكان، وقرروا الفرار بدينهم، وآووا إلى كهفهم.

وهذا في ظاهر الأمر هروب، لكِنّ فرقا كبيرًا بين أن تهرب من مواجهة الشيء ضعفا، وأن تهاجر من الأرض حفاظا على دينك أعز ما تملك، وأملا في أن تتحقق رسالتِك.

"إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ... إنهم فتية"

الفتية هم الشبان، والشبان أقبل للحق وأهدى للسبيل من الشيوخ، ولذا كان أغلب أتباع النبي r من الشبان.

مَن أعظم شاب نصر النبي r في بداية الدعوة؟

في أحلك الأوقات، بينما الأعداء يتربصون بالنبي وأصحابِهِ، قريش كلها ضد النبي r، ويأتي دور الأرقم بن أبي الأرقم t، ليتحدى نفسه أولا، ويتحدى كل من طمس الله بصيرته.

النبي r الذي تطارده قريش وتطارد كل من معه، تطاردهم وقد أهدرت دماءهم جميعًا، يعلن الشاب الجريء الأرقم بن أبي الأرقم أنه سيؤويهم في داره على جبل الصفا.

تخيل، كم كان عمر الأرقم حين كان يفعل هذا العمل الانتحاري؟

إنه لم يتجاوز السادسة عشرة من عمره، حقًّا "إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى".

أيُّ ثبات هذا؟ وأي قلب ذاك الذي يتحمل مسئولية تكاد اليوم نسميها مستحيلة، أيّ شجاعة هذه وشبابنا اليوم أقصى أمنياته أن ينتصر في معارك وهمية في ملاعب الكرة، أو على الهواتف النقالة.

وإنك لتعجب حين تعلم أن ذاك الشاب الجريء لم يفتح داره للنبي ومن

معه يومًا أو يومين أو ثلاثة، بل ظلت داره مفتوحة لهم، طوال مرحلة الدعوة السرية في مكة، ثلاث سنوات كاملة، حتى أصبحت هذه الدار أعظم مدرسة للتربية والإعداد عرفها التاريخ، إذ ربّى فيها رسول الله أفذاذ الرجال ، وتخرجوا قادة، حملوا راية التوحيد والجهاد والدعوة، فحرروا البشرية من رق العبودية، وأخرجوهم من الظلمات إلى النور، فدانت لهم الجزيرة كلها.

"إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ"

كهف مهجورٌ تخيم فيه سكينةُ الإيمان، تسكنه نفوسٌ مطمئنة خيرٌ من دنيا مبهرجة، يسودها الصخب والقلق، لا تجد فيها النفس راحة ولا أمنا ولا أمانا. هؤلاء الفتية كانوا من أسر غنية رفيعة المستوى، من أسر لها مكانة اجتماعية وسياسية واقتصادية، خرجوا وتركوا خلفهم القصور، لأي شيء؟ لكهف مظلم موحش ضيق مخيف، لجئوا إليه ليحفظوا دينهم.

"إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ"

تركوا الحدائق والدور، أداروا لها ظهورهم، ووجهوا وجوهم للذي خلقهم، وفطر السموات والأرض بالحق، فوجدوا عنده كل شيء.

حين تدير وجهك لله سبحانه وتعالى وحده، وتدير ظهرك للدنيا بأسرها، يعطيك الله الدنيا والآخرة.

هؤلاء الفتية أداروا ظهورهم إلى الدنيا وزخارفها، أداروا ظهورهم إلى الدنيا بزينتها ومفاتنها، فماذا فعلْت أنت لكي تنال بيتا في الفردوس الأعلى؟

ماذا تركت لتنال بيتًا في الجنة؟

هؤلاء الشبان مِن عِلية القوم، أبناء الأكابر والمراكز، خافوا على دينهم الذي هو رأس مالهم، فقرروا ترك الغالي والنفيس، تركوا خلفهم الأهل والمال، والثروة والراحة والجمال، تركوا الرفاهية والتكنولوجيا، ولجئوا إلى كهف مظلم موحش ضيق مخيف؛ ليحفظوا دينهم.

فتبًّا لدنيا بلا دين، وتبًّا لحياة في القصور العالية بلا دين، وتبًّا للأموال والكنوز بلا دين، وتبًّا للحياة بمناصبها وأملاكها وسلطانها بلا دين، وتبًّا للدنيا بأتباعها وجنودها بلا دين.

هؤلاء ضحوا، وبذلوا، فتركوا الأهل والوطن، والمتاع والسكن، لأجل إقامة دينهم، فماذا تركت أنت لله؟

لابد أن تكسر الحاجز بينك وبين الطاعة.

جرب أن تقوم الليل ولو لمرة واحدة في حياتك بالبقرة وآل عمران؛ لكي تعلم نفسك أنك تستطيع ذلك، وكي تلقى ربك وقد كتبت في صحيفتك مرة على الأقل. اكسِّر هذا الحاجز واترك الحرام الذي تحبه، وأدمنته منذ أعوامٍ طويلة. حطم هذا الحاجز الذي بداخلك، وقم الليل. ولو لمرة واحدة . بألف آية، كي تُكتب عند الله من المقنطرين.

جاهد نفسك . ولو لمرة واحدة . واختم القُرآن في ثلاث ليال، اقرن ذكر الله بأنفاسك؛ لتأتي يوم القيامة بجبالٍ من الحسنات، تصدّق بثلث راتبك ولو لمرة واحدة كي تكسر حاجز الخوف من الرزق، ثم أخفِ ما أنفقته عن شمالك. اكسر الحاجز وحافظ على السُّنن الرواتب والأذكار.

ولتكن القاعدة: جاهد نفسك كلّ أسبوعٍ في كسر حاجزٍ مع طاعة.

"فقالوا رَبَّنا آتِنا مِن لدنك رَحْمَةً وهيِّئ لنا مِن أمْرنا رَشَداً"

هذه هي الوسيلة الرابعة للحماية من الفتن الدعاء وطلب المعونة من الله عز وجل، وطلب الهداية. "رَبَّنا آتِنا مِن لدنك رَحْمَةً وهيِّئ لنا مِن أمْرنا رَشَداً" فمن أعظم وسائل الثبات سؤال الله الرحمة والرشاد.

فليست القضية أن ترى الحق حقاً، وإنما القضية أن يرزقك الله اتباعه.. فكثير من الناس يرون الحق، لكنّ نفوسهم تأبى عليهم أن يتبعوه أو يقبلوه.

"وَهيِّئ لنا مِن أمْرنا رَشَداً"

هذا الرشد هو الذي جعلهم يدركون حقيقة الدنيا، وزينتها، ومباهجها الفتانة، علموا حقيقتها، وأدركوا أنها ظل زائل، فتركوا الأهل والحبيب، والقريب والبعيد، وفروا بدينهم بعد أن حاولوا إصلاح واقعهم فلم يستطيعوا، ولقد استجاب لهم ربهم، فجعلهم آية، بعد أن اقتلع جذور الشرك وأهله، وأذن لدينه أن يسود، ولشرعه أن يحكم.

ففتية الكهف طلبوا من ربهم أن يهيئ لهم من أمرهم رشداً، وقد استجاب لهم؛ لأنهم أخذوا قبل ذلك بغاية الرشد والصلاح، وأعني بذلك التوحيد الخالص لله عز وجل. فمن الطبيعي أن يستجيب لهم ربهم، وقد حققوا له التوحيد من قبل، ولذا فقد هداهم للحق المبين "مَن يَهْدِ الله فهُوَ المُهْتدِ ومَن يُضْلِلْ فلن تجِدَ لهُ وَلِيًّا مُّرْشِدًا". هنا نجد تقريراً قطعياً وجازماً بأن الله عز وجل هو مصدر الهداية والرشاد، ومن يضله الله فلن يجد من غيره مرشداً.

وهذا حال كل من لجأ إلى الله حق الالتجاء، فكان له ناصراً ومعيناً، وأحال عسر أمره يسراً، وجعل له من بعد الضيق مخرجاً وفرجاً.